المركز الإسلامي الإفريقي للدراسات

دراسات إفريقية

مجلة بحوث نصف سنوية

العدد السابع أغسطس ١٩٩٠م محرم ١٤١١هـ

ليبيا وتشاد والصحراء الكبرى

تأليف جون رايت*
عرض وتحليل د. حسن مكى محمد أحمد *

نستعرض فى هذا العدد كتابا يتناول موضوعا معاصرا وهو تحت عنوان :
JOHN WRIGHT, Libya, Chad and the Central Sahara. Hurst Co., London, 1989.
وترجمة العنوان : ليبيا وتشاد والصحراء الكبرى وهو من تأليف الكاتب البريطانى جون رايت وإصدارات هيرست وهى دار نشر بريطانية في لندن. يقع الكتاب فى ١٦٨ صفحة ويبلغ ثمنه ثلاثةوعشرين من الجنيهات الاسترلينية.

إن دلت هذه الدراسة على شيء، فإنما تدل - ضمن أشياء كثيرة - على أزمة الدراسات العلمية فى عالمنا الإسلامى العربى حيث أصبحنا نعتمد فى التعرف على تاريخنا وحقوقنا وتلمس أبعاد شخصيتنا في دراسات المستشرقين الغربيين وهى - دراسات حتى لو حسن فيها الظن فإنها لا تكاد تخلو من الغرض بل ويستخدم بعضها كسلاح فكرى وعقلى لإماتة الأمة واستلابها وطمس معالم شخصيتها وتغيير نمط تكوينها العقلى والنفسى.

وعلى أية حال، فإن هذه الدراسة تكشف عن عمق العلائق التاريخية الضاربة الجذور بين قبائل شمال إفريقيا وشعوب إفريقيا ما وراء الصحراء كما تتعرض الدراسة للثمار والانجازات الحضارية لهذا التفاعل المستمر والممتد منذ آلاف السنين. ويضرب الكاتب مثالا لهذا التفاعل بحركة البدو الليبيين الذين اخترقوا حاجز الرمال وشقوا الصحراء واستطاعوا وصل فزان ببحيرة تشاد، مخترقين رمال وأودية مرزوق وجبال الصحراء وهضبة التبست. كما تكشف الدراسة بأن الطريق الشرقى الممتد من طرابلس حتى بحيرة تشاد كان مطروقا منذ أيام المؤرخ اليونانى هيرودتس.

ازدادت حركة هذا التفاعل فى ظروف الفتح العربى - الإسلامى لشمال إفريقيا وانتشار الثقافة العربية والإسلامية ولكن بالطبع لم يؤصل الكاتب التأصيل الكافى لهذا التفاعل وليد التحول الحضارى الجديد، وعمد الكاتب إلى الإشارة إلى أن المقاومة البربرية للإسلام وثقافته ما تزال متصلة إلى يومنا هذا. كما عمد الى تضخيم دور الفاتحين العرب فى تجارة الرقيق وكيف أن هذه التجارة أصبحت عماد علاقات التجارة لما بين شعوب جنوب الصحراء وشمالها. وأبعد الكاتب النجعة حينما نسب الاسترقاق

للإسلام مشيرا إلى أن الرق مؤسسة راسخة فى الثقافة الإسلامية وأن القرآن الكريم قد أباح استرقاق غير المسلمين (ص ٢٨)

أدى التفاعل التجارى والثقافى ما بين إفريقيا الشمالية والوسطى إلى بروز عدة ممالك إسلامية فى وسط افريقيا، ولعبت هذه الممالك دورا هاما فى ترسيخ قواعد هذا التواصل الحضارى وازدهار التجارة والمعاملات كما أسهمت فى نشر الثقافة العربية وتحكيم الشريعة الإسلامية وقيام حركة الحياة (زواج - موت - تعليم) على الثقافة الإسلامية وتعقب الكاتب كذلك توسع الدولة العثمانية فى شمال إفريقيا ومحاولاتها لإيجاد مواضع قدم فى إفريقيا ما وراء الصحراء مستفيدة من جسور التواصل الليبى مع هذه المناطق وكذلك من طرق التجارة القديمة ولكن لم تسجل جهود العثمانيين نجاحا يذكر فى هذا المجال - وتتبع الأروبيون خطى العثمانيين، محاولين إيجاد مواقع لهم فى إفريقيا لنشر ثقافة أوربا وبسط المسيحية وإيقاف انتشار الإسلام وعزل الدولة العثمانية. ولكن ظلت اللغة العربية حتى المرحلة الاستعمارية هى لغة الثقافة والحضارة فى إفريقيا وظلت هى اللغة المكتوبة الوحيدة فى إفريقيا كما اصبح ثلث سكان تشاد من العرب.

وتؤكد الدراسة أنه على مدار التاريخ كان هناك عامل ليبى فى التراتيب الداخلية لما يعرف بتشاد اليوم وغيرها من الممالك التى سادت ثم بادت فى هذه المنطقة. وجاءت فى القرن التاسع عشر الحركة السنوسية فبددت دياجير الظلام ونشرت الإسلام. والحركة السنوسية هى الحركة التى أنشأها السيد/ محمد على السنوسى وهو تلميذ للسيد/ أحمد بن إدريس الفاسى. والسنوسى جزائرى الأصل ولكنه تشبع بتعاليم السيد/ أحمد بن إدريس وسيطرت عليه فكرة تجديد الدين واستقر فى ليبيا منذ عام ١٨٤٣م، حيث كسب قلوب الناس وأنشأ حركة تآخ ودعوة لله عرفت بحركة الاخوان السنوسيين وعمدت هذه الحركة للتركيز على التبشير بالإسلام فى إفريقيا وراء الصحراء واستطاعت الحركة أن تحقق أهدافها فى الدعوة والإرشاد ونشر الإسلام دون حاجة لفتوحات عسكرية. ونشطت الحركة فى تأسيس المراكز الإسلامية التى عرفت (بالزوايا) وهى عبارة عن وحدات للعمل والإنتاج والتعبد ملحقة بها مراكز للإنتاج الزراعى والصناعى ودور العبادة والتعليم والمكتبات وهى وحدات مكتفية ذاتيا مما مكنها من الصمود فى أجواء الصحراء والمناطق المنعزلة.

واستطاعت السنوسية أن تنشر مبادىء الإسلام وسط القبائل الإفريقية المشركة والوثنية وقد نجحت السنوسية فى اقامة ١٤٦ زاوية فى الحجاز وشمال إفريقيا ونهضت عشر من هذه الزوايا بمسئوليات نشر الدعوة فى منطقة تشاد الحالية بل وأصبح مركز

الطريقة الرئيسى فى الأجزاء الشمالية من تشاد الحالية. كما نجحت الحركة فى تعمير الطرق التجارية وتنشيط حركة القوافل بشق الآبار وتقديم الخدمات وبسط السلام والأمن فى المنطقة من فزان حتى بحيرة تشاد واستطاعت الحركة أن تجد طريقها لقلوب الملوك الأفارقة واعوانهم وأصبح سلطان وادى النيل السلطان محمد شريف (١٨٣٥ ــ ١٨٥٠) من مريديها وكذلك السلطان رابح فضل الله السودانى، صاحب التغريبة الشهيرة ومؤسس مدينة أم جمينا. وكذلك عملت على تجنيد السلطان عبدالرحمن سلطان باجرمى فى ظروف صراعها مع الفرنسيين.

وحينما توغل الفرنسيون بجيوشهم فى إفريقيا الغربية وقضى الانجليز على الدولة الإسلامية المهدية فى السودان، أخذت السنوسية فى تعبئة الوجود الإسلامى وحض المسلمين على الجهاد وعمدت إلى إشاعة السلاح وسطهم وتزويدهم بالذخيرة لإيقاف زحف الفرنسيين والايطاليين وغيرهم من القوى الأوربية. وهكذا فإن الطريقة السنوسية اسهمت فى تأكيد علاقات ليبيا بتشاد وما حولها بصورة قوية فريدة ولكن جاء حدث الأحداث بتقهقر الحركة السنوسية أمام كثافة نيران السلاح النارى الفرنسى، حيث استطاعت فرنسا أن تجتاح كل منطقة تشاد الحالية وأن تصل طلائع جيشها إلى منطقة فاشودة فى عام (١٨٩٨م) مما أدى إلى صراع مع بريطانيا للفوز بهذه المنطقة وانتهى ذلك الصراع بالمعاهدة الفرنسية ـ البريطانية فى مارس ١٨٩٩م والتى أسهمت فى خلق الحدود التشادية الليبية لأول مرة فى التاريخ حيث حددت المعاهدة مناطق نفوذ فرنسا حتى خط عرض ١٥ ش. وفى ابريل ١٩٠٠م استطاعت قوة فرنسية الحاق الهزيمة بجيش السلطان رابح فضل الله وقتل رابح ذاته، كما حصدت بعد ذلك قوات الحركة السنوسية ودمرت زواياها ومساجدها، وفى ذلك الظرف الحرج مات سيدى المهدى أمير الحركة السنوسية ودفن فى مركزه الرئيسى فى شمال تشاد فى هضبة التبست فى مدينة قورو. وخلف سيدى المهدى ابن عمه سيدى أحمد الشريف والذى قاتل قتال الأبطال لحماية حدود الدولة السنوسية والتى شملت الأجزاء الجنوبية من ليبيا الحالية ومنطقة شمال تشاد. ولكن تبدل الحال باجتياح فرنسا لكل منطقة تشاد الحالية والغزو الايطالى لكل مناطق ليبيا المعاصرة وبحلول عام ١٩٣٢م تم القضاء على حركة الإخوان السنوسيين قضاء نهائيا، واستدار الزمان وقام فى الديار التى عمرها السنوسيون نمطان من الاستعمار وكيانان متمايزان، حيث سادت الثقافة الفاشستية فى ليبيا وهى ثقافة تقوم على عقيدة ومبدأ تفوق الجنس الايطالى، والثقافة الفرنسية القائمة على قهر الثقافات الأخرى وإذابتها بالقضاء عليها وإحلال الثقافة الفرنسية مكانها. وهكذا نهضت الصفوة الجديدة فى كل من تشاد وليبيا منبتة الصلة بتاريخها

وفق تكـوين عقلى ومزاج نفسى مشابه للنمط الاستعمارى السائد، فأطلت دولتان بصورتين مختلفتين وتجزأ ما كان أصلا كيانا واحدا.

نجح التخطيط الاوربى الصليبى فى تمزيق أواصر إفريقيا وتقسيمها لمناطق نفوذ ونجح الاستعمار فى خلق الصفوة الجديثة المستلبة والتى أصبح حصاد جهادها تقليد الغرب والاجتهاد فى المحافظة على الميراث الاستعمارى كما هو.

نجح الفرنسيون فى إقامة كيان مسيحى فى تشاد دعامته قبيلة السارا الوثنية والتى تم تنصير وتغريب أبنائها. وعمد الفرنسيون إلى تكريس هيمنة القبيلة على كل أجهزة السلطة فأصبح المنتمون لها عماد الخدمة العسكرية والخدمة المدنية ومواقع النفوذ فى الدولة ورجال المال والأعمال. ولما هبت رياح الاستقلال على إفريقيا، اعتمد مسلمو تشاد على نصرة السودان وليبيا لتغيير نظام الأشياء الذى خلفه الاستعمار وتم تأسيس حركة فرولينا فى مدينة نيالا السودانية فى الستينات واستطاع مسلمو تشاد القضاء على الحكم المسيحى المتمثل فى الرئيسين تمبل باى وفلكس مالوم إلى أن انتهت أوضاع تشـاد إلى الحـرب الأهلية المعاصرة والتى دخلت فيها القوى «الاوربية» (امريكا ـ فرنسـا) فى محاولـة مستميته لإيقاف تأثيرات الثقافة العربية الإسلامية وإقصاء ليبيا ورئيسها معمر القذافى عن إعادة التاريخ إلى ما كان عليه قبل الهجمة الاستعمارية.

ومهـما يكن فإن الدراسة تنتهى إلى أن مصير ليبيا وتشاد مترابط ومتداخل ومهما بلغت ضغـوط التكييف الغـربى فإن حركـة التداخل والتواصل الليبي ـ التشادى ستتواصل مثلها مثل علاقات روسيا ببولندا وسوريا بلبنان وأمريكا بالمكسيك.